المحاضرة رقم (02):نبذة تاريخية حول دراسات ونظريات النمو اللغوي

أولًا: نبذة تاريخية حول دراسات ونظريات النمو اللغوي عند الطفل

يمثل النمو اللغوي عند الطفل أحد أبرز مجالات البحث التي شهدت تحولات عميقة في الفكر النفسي واللساني خلال القرن العشرين. ولم يتشكل هذا المجال دفعة واحدة، بل مرّ بمراحل متعاقبة عكست تطور المناهج العلمية وأدوات البحث.

1 المرحلة الوصفية المبكرة

في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، اتسمت الدراسات بالطابع الوصفي–التتبعي، حيث اعتمد الباحثون على تسجيل اليوميات اللغوية وتحليل الإنتاجات الأولى للطفل. وقد ساهمت هذه المرحلة في الكشف عن أن النمو اللغوي:

- يتم بشكل تدريجي ومنظم
- يخضع لتسلسل نمائي شبه ثابت
- يرتبط بمؤشرات عمرية تقريبية

وكانت أهم مساهمة لهذه المرحلة أنها نقلت دراسة لغة الطفل من المجال الفلسفي التأملي إلى المجال التجريبي القائم على الملاحظة المنهجية.

2 المرحلة السلوكية: هيمنة التفسير البيئي

مع صعود المدرسة السلوكية في النصف الأول من القرن العشرين، خضعت دراسة اللغة لمنطق نظرية التعلم. فاعتُبرت اللغة نوعًا من السلوك المكتسب الذي يتشكل عبر التفاعل مع المثيرات البيئية، ويثبت بالتعزيز.

وقد انسجم هذا الطرح مع التصور العام للسلوك الإنساني في تلك الفترة، الذي كان يركز على ما هو قابل للملاحظة والقياس، ويستبعد العمليات العقلية غير الظاهرة.
إلا أن الاقتصار على التفسير البيئي كشف عن محدوديته أمام ظواهر مثل الإبداع اللغوي، وسرعة اكتساب البنى النحوية المعقدة.

3 التحول المعرفي–الذهني

في منتصف القرن العشرين، شهدت العلوم الإنسانية ما يُعرف بالتحول المعرفي، حيث أعيد الاعتبار للعمليات الذهنية الداخلية. وضمن هذا السياق، برز الاتجاه الذي أكد أن النمو اللغوي لا يمكن تفسيره فقط عبر التعلم الخارجي، بل يرتبط بالبنية العقلية للطفل وبنضجه العصبي.

وقد أدى هذا التحول إلى إعادة صياغة سؤال الاكتساب:
هل اللغة نتاج بيئة فقط، أم نتاج استعداد داخلي، أم تفاعل بينهما؟

4 بروز البعد الاجتماعي والثقافي

لاحقًا، ومع تطور علم النفس الاجتماعي واللسانيات الاجتماعية، برزت مقاربات ترى أن اللغة تتشكل داخل سياق تفاعلي. فلم يعد الطفل يُنظر إليه كمتلقٍ سلبي للمدخلات، بل كفاعل نشط يطور كفاءته اللغوية من خلال التفاعل مع الراشدين داخل بيئة ثقافية محددة.

وقد بينت الدراسات أن:

- جودة المدخل اللغوي تؤثر في سرعة النمو
- التفاعل الحواري المبكر عامل ضروري
- السياق الثقافي يوجه أنماط الاستعمال اللغوي

5 الاتجاهات المعاصرة: المقاربة متعددة الأبعاد

مع تقدم تقنيات التصوير العصبي والدراسات النفس-لغوية، أصبح النمو اللغوي يُفهم باعتباره عملية دينامية معقدة، تتداخل فيها:

- العوامل البيولوجية (النضج العصبي، التنظيم الدماغي)
- العمليات المعرفية (الذاكرة، الانتباه، المعالجة الرمزية)
- التفاعل الاجتماعي
- الخصائص الثقافية واللغوية للبيئة

وبذلك انتقل البحث من التفسيرات الأحادية إلى مقاربة تكاملية متعددة المستويات، وهو التوجه الذي يشكل الإطار المرجعي السائد في الدراسات الأرطوفونية الحديثة.

أهمية هذا التطور التاريخي في التكوين الأرطوفوني

إن تتبع المسار التاريخي لدراسة النمو اللغوي لا يمثل مجرد عرض معرفي، بل يسمح بفهم الخلفيات النظرية التي تستند إليها أدوات التقييم والتكفل المعاصرة. فكل مرحلة من مراحل التطور العلمي أضافت بعدًا جديدًا لفهم اللغة، مما مكّن من بناء تصور أكثر دقة لطبيعة الاضطرابات اللغوية وأسبابها المحتملة.

ومن هنا، فإن الإلمام بالتطور التاريخي لهذه النظريات يمكّن الأرطوفوني من:

- تبني رؤية نقدية غير اختزالية
- تفسير الظواهر اللغوية في ضوء تعدد العوامل
- تجنب الاقتصار على تفسير واحد في عملية التشخيص